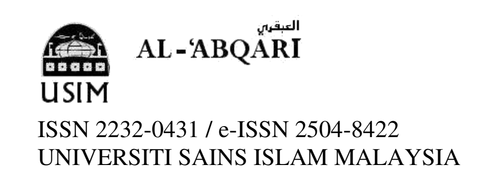

ISSN 2232-0431 / e-ISSN 2504-8422
UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA

VOL. 25 (1) 2021: 300-313
Journal of Islamic Social Sciences and Humanities
مجلة الثقافة الإسلامية والإنسانية

Submission date: 03/12/2020 Accepted date: 03/08/2021
DOI: 10.33102/abqari.vol24no2.344

التصوف عند الإمام أبي حامد الغزالي

Sufism according to Imam Abu Hamid al-Ghazali

Mesbahul Hoque[a1], Muneer Ali Abdul Rab[b2], Yuslina Mohamed[c3] Amran bin Abdul Halim[a4]

[a] Faculty of Quranic and Sunnah Studies, Universiti Sains Islam Malaysia
[b] Faculty of Sharia and Law, Universiti Sains Islam Malaysia
[c] Faculty of Major Language Studies, Universiti Sains Islam Malaysia

[1]mesbahul@usim.edu.my (corresponding author)
[2]muneerali@usim.edu.my
[3]yuslina@usim.edu.my
[4]amranabdulhalim@usim.edu.my

ملخص

مرّ الإمام أبو حامد الغزالي بمراحل فكرية عديدة ومختلفة في حياته، وانتهى به المطاف بالصوفية، فسلك مسلك الصوفية وانتهج منهجها وقام بدعوة الناس إليها والترويج لها ومساندتها بالتأليفات والإرشادات حتى أصبح من أحد روّاد هذه الفرقة والدافعين لها، ولم يقف الإمام الغزالي عند هذا الحد بل قام الغزالي بإصلاح هذه الفرقة. وكان الهدف من هذا البحث هو إلقاء الضوء على بصمات الإمام الغزالي في التصوف، وما قام به من تجديد في مفهوم التصوف وإصلاح أخطائه، واستخدم الباحث المنهج الوصفي والاستقرائي للوصول إليه، ومن أهم نتائج هذا البحث أن الإمام الغزالي هو من جعل مفهوم الصوفية أكثر سمحا وأكثر اعتدالا، معتمدا على أسس القرآن والسنّة وجعله بعيدا كل البعد عن الغلو والتطرف.

الكلمات المفتاحية : الغزالي، التصوف، الوسطية، الإصلاح.

Abstract

Imam Abu Hamid al-Ghazali passed through many different stages of thought in his life and ended up with Sufism. By his writing and books, he guides the people towards Sufism. At the end he became one of the pioneers of Sufism and its defenders. Imam Ghazali did not stand at this point, he renewals the Concept of Sufism and reforms its many mistakes. The aim of this paper was to shed light on Imam Al-Ghazali's impress in Sufism and the reformation he made in the concept of Sufism. The researchers used the descriptive and inductive approach to reach that goal. One of the most important results of this research is that Imam Al-Ghazali is the one who made the concept of Sufism more tolerant and more moderate based on the foundations of the Qur'an and Sunnah and making it far from exaggeration and extremism.

Keywords: Al Ghazali, *Al tasawuf*, *Al Wasatiyah*, *Al 'iislah*.

المقدمة

يعتبر الإمام أبو حامد محمد الغزّالي الطوسي النيسابوري أحد أهم أعلام عصره وأحد أشهر علماء المسلمين في التاريخ، ومجدّد علوم الدين الإسلامي في القرن الخامس الهجري، كما يعدُّ أحد مؤسسي المدرسة الأشعرية السنّيّة في علم الكلام (Al-Jaludi, 2008). وكان له أثرٌ كبيرٌ وبصمةٌ واضحةٌ في عدّة علوم مثل الفلسفة، والفقه الشافعي، وعلم الكلام، والتصوف، والمنطق، وترك عشرات الكتب في تلك المجالات، ومن هنا لُقِّب الغزالي بألقاب كثيرة في حياته، أشهرها لقب "حجّة الإسلام"، ومن ألقابه أيضا: زين الدين، ومحجّة الدين، والعالم الأوحد، ومفتي الأمّة، وبركة الأنام، وإمام أئمة الدين، وشرف الأئمة (Bashar Awad and Ziad Abdel Karim, 2019).

وقد قام الإمام الغزالي بدور التجديد لعلم التصوف حيث قام من خلال العديد من كتبه ومؤلفاته بإصلاح كثير من الأخطاء والأفكار المنحرفة المرتبطة بالفرقة الصوفية، وجعل منهج الصوفية أكثر سماحة وأكثر اعتدالا، مبنيا على الوسطية متماشيا مع أسس القرآن والسنّة بعيدا كل البعد عن الغلو والتطرف. ومن أشهر مؤلفاته في الصوفية : إحياء علوم الدين، ومنهاج العابدين، وكيمياء السعادة، (وقد كتبه بالفارسية وتُرجم إلى العربية) وغير ذلك.

نبذة عن حياة الإمام أبي حامد الغزالي

ولد الإمام الغزالي في سنة 450هـ الموافق لـ 1058م بقرية تسمى بـ"طوس" بمدينة "خراسان" (Al- Hamawi, 1995)، وقضى الغزالي في قرية "طوس" أيام طفولته، حيث حفظ القرآن وقرأ طرفا من الفقه على يد الشيخ أحمد بن محمد الراذكاني، ثم ارتحل إلى مدينة "جرجان" حيث أخذ هناك بعضا من العلوم والفنون على يد الشيخ أبي نصر الإسماعيلي، ثم انتقل إلى مدينة "نيسابور" وهنا التزم بمجلس الشيخ أبي المعالي الجويني (رئيس المدرسة النظامية الملقّب بإمام الحرمين)، فأخذ عنه معظم العلوم (Al- Dhahabi, 1993).



خريطة توضح مدينة خراسان مسقط الغزالي، وهي تقع داخل أفغانستان حاليا

وفي سنة 484هـ لما بلغ الغزالي أربعا وثلاثين سنة من عمره رحل إلى بغداد مدرّساً في المدرسة النظامية في عهد الدولة العباسية بطلب من الوزير السلجوقي نظام الملك، وصار هناك مقصداً لطلاب العلم الشرعي من جميع البلدان، وفي تلك الفترة اشتهر الغزالي شهرةً واسعةً بين طلبة العلم والعلماء، حتى بلغ أنه كان يجلس في مجلسه أكثر من 400 من أفاضل الناس وعلمائهم يستمعون له ويكتبون عنه العلم (Al-Subki, 1992) .

وبعد أربع سنوات من الدرس والتدريس قرّر الإمام الغزالي اعتزال الناس والتفرغ للعبادة وتربية نفسه، متأثراً في ذلك بالصّوفية وكتبهم، فخرج من بغداد خفيةً في رحلة طويلة بلغت حوالي إحدى عشرة سنة، تنقل خلالها بين دمشق والقدس والخليل ومكة والمدينة المنورة، كتب خلالها كتابه المشهور "إحياء علوم الدين" كخلاصة لتجربته الروحية (Ibn Kathir, 1986).

وفي عام 499هـ عاد الإمام الغزالي إلى بلده "طوس" متخذاً بجوار بيته مكانًا للتعبد والعزلة، ومدرسةً للفقهاء حتّى تُوفي فيها سنة 505هـ الموافق 1111م (Ibn Khalkan, 1968). يقول الغزالي عن عودته إلى بلده "طوس" في كتابه "المنقذ من الضلال": ((ثم جذبتني الهمم، ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق إليه فآثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة، وتصفية القلب للذكر)) (Al-Ghazali, 1885). وفي أيام عزلته وزع أوقاته بين ختم قرآن ومجالسة أهل القلوب، وتأليف الكتب، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه عن فائدة (Al-Subki, 1992) .

وألّف الإمام الغزالي الكثير من المؤلّفات، في مختلف صنوف العلوم الشرعية، في الفقه وأصول الفقه، والعقيدة الإسلامية، والتصوف، والفلسفة، والرد على المخالفين، أوصلها بعض الباحثين لأكثر من 228 كتابًا ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود، وقد أُحصى (Maurice Puig, 1959) للغزالي ما بين 404 كتاب ورسالة ومخطوطة، وأما (Badawi, 1961) فقد بلغ عنده ما نُسب إلى الغزالي أكثر من 457 ما بين كتاب ورسالة ومخطوطة، بما فيها ما هو مكرر مع تغيير العنوان، من أشهر هذه الكتب: الاقتصاد في الاعتقاد، وبغية المريد في مسائل التوحيد، وإلجام العوام عن علم الكلام، والمقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى، وتهافت الفلاسفة، وميزان العمل، وإحياء علوم الدين، وبداية الهداية، وأيها الولد، والأربعين في أصول الدين، وكيمياء السعادة، (وقد كتبه بالفارسية وتُرجم إلى العربية)، ومنهاج العابدين، والوسيط في فقه الإمام الشافعي، والمستصفى في علم أصول الفقه، وشفاء الغليل في القياس والتعليل، والقسطاس المستقيم، ولباب النظر، وغير ذلك.

المراحل الفكرية للإمام الغزالي

مرّ الإمام الغزالي في حياته بمراحل فكرية كثيرة بحثا عن الحق والحقيقة، وكان السبب في المرور بهذه المراحل هو طلب الآخرة حيث إنه نظر في عمله بالتدريس وجمع العلوم، فوجد أنَّه عملٌ لا يبتغى به وجه الله، وأنَّ باعثه كان الرياء والسمعة وانتشار الصيت، ساعتها أيقن الغزالي أنَّه هالكٌ إذا لم يعمل على تلافي تلك الأحوال، لذلك رأى أنَّ بداية طريق التوبة أن يغادر بغداد إلى (طوس) فيلزم داره؛ حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، لكنَّه لم يستطع الإقدام على هذه الخطوة إذ كانت نفسه تنازعه في ذلك تنازعًا لا قِبل له بحسمه. يقول الإمام الغزالي واصفًا حاله تلك : ((وكنت لا تصفو لي رغبة في طلب الآخرة بُكرةً إلا ويحمل جند الشهوة حملةً

فَيُفَتِرُهَا عشيةً، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل! فلم يبق من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل، ثم يعود الشيطان فيقول: هذه حالةٌ عارضةٌ، وإياك أن تطاوعها فإنَّها سريعة الزوال))، (Al-Ghazali, 1885).

فأول مرحلة مرّ بها الإمام الغزالي هي مرحلة الشكّ بشكل لا إرادي، والتي شكّ خلالها في الحواس والعقل وفي قدرتهما على تحصيل العلم اليقيني، ودخل في مرحلة من السفسطة غير المنطقية حتى شُفي منها بعد مدة شهرين تقريباً، ليتفرّغ بعدها لدراسة الأفكار والمعتقدات السائدة في وقته، وقد تحدث الإمام الغزالي عن هذه الرحلة الطويلة بشتى مراحلها فى كتابه الشهير (المنقذ من الضلال) الذي خصّه لبيان رحلته فى البحث عن الحقيقة، حيث يقول: ((أحضرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق: المتكلمون: وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر، والباطنية: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم، والفلاسفة: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان، والصوفية: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة، وأهل المشاهدة والمكاشفة))، ويتابع قائلا: ((فابتدرت لسلوك هذه الطرق، واستقصاء ما عند هذه الفرق مبتدئاً بعلم الكلام، ومثنياً بطريق الفلسفة، ومثلثاً بتعلّم الباطنية، ومربعاً بطريق الصوفية)) (Al-Ghazali, 1885).

علاقة الإمام الغزالي بالتصوّف

كان التصوف آخر مرحلة مرّ بها الإمام الغزالي في حياته بحثا عن الحق والحقيقة، وإن كانت علاقة الإمام الغزالي بالصوفية بدأت منذ صغره، حيث كان والده كما يقول (Al-Subki, 1992) في طبقاته "لما حضرته الوفاة وابناه صغيران أوصى بهما إلى صديق له متصوف من أهل الخير، وقال له: إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلّم الخط وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدي هذين، فعلمهما، ولا عليك أن تنفق في ذلك جميع ما أخلفه لهما"، فعندما كبر الإمام الغزالي بدأ يطالع كتب الصوفية، وتأثر ببعض منها، مثل كتاب "قوت القلوب في معاملة المحبوب" لأبي طالب المكي (ت 380هـ) ويعدُّ هذا الكتاب مصدراً مهما لكتاب "الإحياء"، ويؤكد ذلك (Zaki Mubarak, 2012) حيث يقول: ((ويكفي أن تقرأ باب التوكل مثلاً في الكتابين لتعرف أنهما يسيران في طريق واحد، وإلى غاية واحدة، حتى لتجدهما يتفقان غالباً في الشواهد من الآيات والأحاديث والأخبار، ويمكن الجزم بأن الغزالي أودع في كتاب الإحياء كل ما صح لديه وحسن عنده من كتاب قوت

القلوب))، وأما الرسالة الأخرى التي تأثر بها الغزالي بالصوفية "الرسالة القشيرية" في التصوف لأبي القاسم القشيري (ت465هـ)، ويذكر فيها تراجم طائفة الصوفية، ثم وضع عدة أبواب في المجاهدة والخلوة، والعزلة والمراقبة والصبر والشكر والخوف والرجاء وما إلى ذلك مما يهمّ السالكين، وكأن الغزالي اعتمد عليها عند تأليف الإحياء (Muhammad, Ahlam& Ibtisam, 2014).

وكذلك تأثر الغزالي في مرحلة التصوف بكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد وأبي بكر الشبلي وأبي يزيد البسطامي، كما أنه كان يحضر مجالس الشيخ الفضل بن محمد الفارمذي الصوفي، والذي أخذ عنه الطريقة، فتأثر بهم تأثيراً كبيراً، يقول الغزالي بنفسه عن هذه المرحلة :((ثم إنّي لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمّتي على طريق الصّوفيّة، وعلمت أنّ طريقهم إنّما يتمّ بعلم وعمل، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النّفس والتّنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بذلك إلى تخلية القلب من غير الله تعالى وتحليته بذكر الله وكان حينئذ العلم أيسر عليّ من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطّلعت على كنه مقاصدهم العلميّة، حصلت على ما يمكن أن يحصل المرء من طريقتهم بالتعليم والسّماع فظهر لي أن أخصّ خصائصهم ،لا يمكن الوصول إليه بمجرد العلم بل بالذّوق والحال، وتبدّل الصّفات، فعلمت يقينا أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال)) (Al-Ghazali, 1885) ، وقد أدّى به الأمر في النهاية لتركه التدريس في المدرسة النظامية ببغداد، واعتزاله الناس وسفره لمدة إحدى عشرة سنة، ينقل خلالها بين دمشق والقدس والخليل ومكة والمدينة المنورة، ويقول الإمام الغزالي عن نتيجة رحلته الطويلة: ((ولقد علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السيرة، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق.بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشّرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً وإنّ جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النّبوة وليس وراء نور النّبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، فأيقنت أنّهم الفرقة النّاجية)). ثم يقول رداً على من أنكر على الصوفية وتهجّم عليهم: ((وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقةٍ طهارتُها، وهي أول شروطها: تطهيرُ القلب

بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة استغراقُ القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله)) (Al-Ghazali, 1885).

مفهوم التصوف عند الإمام الغزالي

عرف العلماء التصوف من حيث الاصطلاح بعبارات متعددة متقاربة، كل منها يشير إلى جانب مهم في التصوف، حيث عرفه الشيخ أحمد زروق بأنه ((علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عما سواه)) (Al- Fassi, 2005). وقال أيضا: ((وقد حُدَّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين مرجع كلها لصدق التوجه إلى الله، وإنما هي وجوه فيه)) (Al- Fassi, 2005). ويقول الجنيد البغدادي: ((التصوف هو استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني))(Al-Madani, 1899) .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: ((التصوف هو تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية)) (Saqr, 1970)، وعرف ابن عجيبة التصوف بأنه ((علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة)) (Al-Husni, 1970).

وعرف البعض التصوف بأنه: ((الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني))، وقيل ((التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء)) (Al-Qushairi, 1966).

ويقول ابن خلدون: ((إن أصل طريقة المتصوفة لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة)) (Ibn Khaldun, 2004).

إذا تعمقنا في هذه التعريفات نجد أن هناك اتجاهات عدّة للتصوف، منها اتجاه أخلاقي يربط التصوف بالسلوك والأخلاق، واتجاه ثان يربط بين التصوف والزهد والعبادة، وهناك اتجاه ثالث يربط بين التصوف والمعرفة

والمشاهدة ورؤية القلب، وهذا الاتجاه يعبر عن الاتجاه الروحي والتجربة النفسية التي يحياها المتصوف، واختاره كمال إبراهيم جعفر، حيث عرّف الصوفية : ((من صفى ربه قلبه، فامتلأ قلبه نوراً، ومن دخل في عين اللذة بذكر الله)) (Kamal, 1970).

والإمام الغزالي له اتجاه خاص في مفهوم التصوف، حيث أقام الغزالي تصوفه على دعائم من الفقه وعلم الكلام معًا، والجمع بين الشريعة والحقيقة، واضعًا نُصب عينيه موافقة عقيدة أهل السنّة والجماعة، فنجده عندما يتناول مسألة إيمانية بالتفسير والتحليل يعبر ذلك على طريقة علماء أهل السنّة والجماعة مقررا ظواهر الشريعة ثم يعقب على ذلك بإبراز معاني الوجدانية والروحانية والباطنية، كما أنه يقوم بمحاربة كل من انحرف عن عقيدة أهل السنّة والجماعة، كالنزعات (الغنوصية) على اختلافها، والتي تأثر بها فلاسفة الإسلام، والإسماعيلية من الشيعة، وإخوان الصفا وغيرهم، يقول الحسيني معدى عن تجديد الغزالي في مفهوم التصوف : ((ولعل الفكرة السائدة في العالم الآن تشير إلى الفضل الكبير الذي يرجع إلى الإمام الغزالي وطريقته في حل مشكلة الظاهر والباطن، ومما يؤكد ذلك نظريته في استواء السرّ والعلن، وتحقيق الحقيقة في الشريعة، وهو بذلك يناقض أراء فلاسفة التصوف كالحلاج (قتل هام 309هـ) وغيره ممن فصلوا بين الشريعة والحقيقة، حيث اعتبروا الشريعة مجرد رسوم، لكن الإمام الغزالي وموقفه السنّي كان أمثر دقة وتعبيرا عن طريقة المعتدلين من الصوفية، إذ قرّر أن الإيمان عن طريق الكشف لا عن طريق التفلسف، هو الطريق إلى معرفة الله تعالى، وهو طريق الرياضة والمجاهدة والزهد والبعد عن متع الحياة الدنيا وأعراضها الزائفة)) (Al-Husaini, 2013).

فمفهوم التصوف عند الغزالي مفهوم متفرد ومعتدل بالنظر عمّا سبقه من مفاهيم شابها الغلو والتطرف والإفراط والتفريط من الزيغ والشطح، فالتصوف عند الغزالي هو عودة إلى الأصل الإسلامي الذي هو الإحسان كما في الحديث ((أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك)) (Al-Bukhari, 2002).

كما أن التصوف في منظور الإمام الغزالي عبارة عن الشريعة والرياضة الروحية والأخلاق الفاضلة، فهو يرى أن هناك ارتباطاً كبيراً بين مفهوم التصوف والشريعة والأخلاق، فالتصوف يجمع بين العلم وعمله، ويجمع بين الحقيقة والسلوك، ويجمع بين نتاج العقل ونور البصيرة، ويجمع بين يقين العلم وطمأنينة المعرفة، فنجده يذكر

من آداب الصوفية كالتمسك بعلم الشريعة ودوام الكدّ وترك الشهوة في اللباس واستشعار التوكل واختيار الفقر، ودوام الذكر وكتمان المحبة وحسن العشرة في الصحبة (Muhammad, Ahlam& Ibtisam, 2014). كما بيّن الإمام الغزالي أنّ للتصوف مقامات تسمّى أحوالاً، وهي التّوبة والصّبر والشّكر والخوف والرّجاء والفقر والزّهد والتوحيد والتوكل والمحبة والشّوق، ويضبطها كلّها قانون عام، وهو القول: أنّها مؤلفة من علم وعمل، فالعلم: هو المبدأ الذي يولّد الحال، وثمرة الحال هو العمل، مثال ذلك أنّ العلم في مقام الشّكر، هو معرفة النّعمة والمنعم، أمّا الحال: فهو الفرح الحاصل بإنعامه، وأمّا العمل: فهو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه (Al-Ghazali, 1991).

لقد عمل الإمام الغزالي بكل ما أوتي له من قوة للتوفيق بين التصوف والشريعة الإسلامية، وصالح بين الفقهاء والصوفية، إذ كانت خصومة شديدة بين الجانبين قبله، وذلك على أساس أن التصوف تحقيق للشريعة لدى المسلم تصديقا وعملا، كما صالح الإمام الغزالي بين علم الكلام والصوفية، حيث أكّد على الإيمان والتوحيد وإخلاص العبادة لله سرا وعلانية، وعدم الاكتفاء بأداء الشعائر الدينية في مظهرها الخارجي، دون أن تكون عن قناعة وصفاء للقلب.

كما حاول الإمام الغزالي بكل طاقته تصفية التصوف مما لحق به من ممارسات مخالفة للشريعة، من المؤثرات العرفانية الفلسفية، وذلك لإرجاع التصوف إلى نبع الإسلام الصافي، وما كان عليه الصحابة من زهد وتقشف في العبادة حيث قسّم علوم التصوف إلى قسمين: علم المعاملة، وعلم المكاشفة الذي قال عنه: ((وهذا لا رخصة في إيداعه الكتب)) (Al-Ghazali, 1991). ويرى الغزالي أنَّ علم المكاشفة علم خفيٌّ لا يعلمه إلا أهل العلم بالله تعالى، ولذلك فإن أصحابه يستخدمون رموزًا خاصة، ولا ينبغي التحدث فيه خارج نطاق أهله، ويقول: ((وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لِمَنْ لم ينكشف له)) (Al-Ghazali, 1991). وهو يرى أنَّ الفناء مقام من مقامات علم المكاشفة، ومنه نشأ خيال من ادعى بالاتحاد والحلول، وهو خطأ جسيم يشبه خطأ من يحكم على المرآة بصورة الحمرة إذا ظهر فيها لون الحمرة من مقابلها.

إضافة إلة ذلك حاول الغزالي ليكون التصوف مقبولا دينيا واجتماعيا ليس كممارسة تعبدية فحسب، بل أيضا كممارسة تربوية علاجية لأمراض النفس، وانحرافات الأخلاق، حيث قدم الإمام الغزالي التصوف للمجتمع كعلاج لآفاته وتزكية للنفوس المريضة التي غلب عليها تحقيق المطالب المادّية دون مراعاة للقيم الأخلاقية، ومنه كان التصوف دعوة إصلاحية، ناتجة عن تجربة الغزالي الشخصية في محاربة الأمراض الاجتماعية والنفسية، وحتى السياسية إذ حارب الفرق المنحرفة، والتي اتخذت من القتل والإرهاب أسلوبا لنشر مبادئها.

وذكر (Al-Taweel, 2016) أن الإمام الغزالي أرسى التصوف السنّي على مجموعة من القواعد والمبادئ، منها:

القاعدة الأولى: النية الصادقة الواقعة من غير التواء، بناء على حديث النبي صلى الله عليه وسلم: ((وإنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى)) (Al-Bukhari, 2002). فالنّيّة الصّادقة عليها مدار قبول العمل، وصلاح القلب وفساده، فالعمل بغير نيّة عناء، ونيّة السّوء خطرها عظيم؛ حيث تؤول بصاحبها إلى الهلاك، وتوقعه في أخطر الذّنوب، ألا وهو الشّرك الأصغر. لذا فتصحيح النّيّة واستحضارها في بداية العمل، من أعظم ما ينبغي أن يبادر إليه العبد.

القاعدة الثانية: إخلاص العمل لله، من غير شريك، ولا اشتراك، متمثلا بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: ((اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك)) (Muslim, 2006). هذه القاعدة هي امتداد للأولى وشرح لها. فالنّيّة تفتقر إلى إخلاص؛ لأنّ النّيّة بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير صدق هباء، وهو طريق النّجاة من الشّرك والرّياء؛ لأنّ الرّياء أن يترك العمل من أجل النّاس، والشّرك أن تعمل العمل من أجل النّاس، والإخلاص هو أن يعافيك الله –تعالى– منهما.

القاعدة الثالثة: اتباع أوامر الشرع، وذلك بالالتزام بكل ما جاءت به الشريعة، والميل لأوامر الله، وليس لأوامر الدنيا، مصداقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم ((لن يستكمل مؤمن إيمانه حتى يكون هواه تبعا لما جئتكم به)) (Al -Baihaqi, 2010). فإيمان العبد لا يتمّ إلّا إذا كان وفق أوامر الشّرع؛ بأن يؤمن بالله وحده، ويتحاكم إلى شريعته وحدها في كلّ شأن من شؤونه، وهذا من مقتضى الشّهادة؛ شهادة أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، فكما أنّه الخالق وحده، فهو الآمر سبحانه وتعالى، والواجب طاعة أمره دون سواه.

القاعدة الرابعة: العمل بالاتّباع لا بالابتداع، فعلى المسلم أن يتّبع السنّة ولا يتبع أصحاب الأهواء والفرق الضالة عن الحق، ويلتزم طريق أهل السنّة، وذلك لقول الرسول صلى الله عليه وسلم ((عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي وعضّوا عليها بالنواجذ)) (Al- Tahawi, 1994). فلا متبوع إلّا رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–؛ لأنّه هو المبلّغ عن الله ما شرعه لعباده، واتّباعه من مقتضى الشّهادة؛ وهي أشهد أنّ محمّدًا رسول الله، ومن لم يلتزم بما جاء به، ولم يطبّق شرعه، ويتّبع سنّته، فليس عبدًا لله، كما أنّ الاتّباع شرط لقبول العبادات، فالأعمال الّتي تعمل بلا اتّباع ولا تأسٍّ برسول الله، لا تزيد عاملها إلّا بعدًا من الله.

القاعدة الخامسة: علو الهمّة في اتباع السنّة، وتجنب التسويف، وتأخير الأعمال، والتزام إتقان وإتمام العمل في وقته، كما ورد في الحديث ((إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه)) (Abu Yala, 1984). فالدّين الإسلاميّ يدعو المسلم إلى العمل والانطلاق بما آتاه الله من قوّة وعزيمة، وترك الفتور والكسل، وأن يستشعر مراقبة الله –تعالى– في كلّ خطوة يخطوها في عمله، وأن يُؤدّي العمل المناط به على أتمّ وجه وأحسن حال.

القاعدة السادسة: العجز والذلة أمام قدرة الله وإرادته، وليس العجز عن العمل والكسل عن الطاعات، واحترام وتوقير جميع الخلق، وتجنب التكبر على المخلوقات، لأن ذلك تكبرا على الله تعالى. وذلك امتثالا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم (إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد) (Muslim, 2006).

القاعدة السابعة: الجمع بين الخوف والرجاء من الله سبحانه وتعالى، وذلك لتحذير الرسول صلى الله عليه وسلم لأمّته ((لن ينجي أحدا منكم عمله» قال رجل: ولا إياك؟ يا رسول الله قال: «ولا إياي، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، ولكن سددوا)) (Muslim, 2006). ويبين الإمام الغزالي في دقة أهمية الخوف والرجاء من الناحية النفسية بحيث يتجنب المتصوف ما يغضب الله خوفا ويسعى إلى ما يرضيه رجاء لمغفرته وطلبا لثوابه، إذ يقول في ذلك : ((والرجاء محمود لأنه باعث واليأس مذموم وهو ضده، لأنه صارف عن العمل، والخوف... باعث آخر بطريق الرهبة، كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة فإذا حال الرجاء، يورث طول المجاهدة بالأعمال،

والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى، والتنعم بمناجاته، والتلطف في التملق له)) (Al-Ghazali, 1991).

القاعدة الثامنة: دوام الذكر أي الالتزام بالأوراد صباحا ومساء، فإن من ليس له ورد فما له من الموارد إمداد، وذلك مصداقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم ((مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت)) (Al-Bukhari, 2002). فالذّكر هو الرّافد الدّائم للمخزون الإيماني، والمحرّك الموقظ لدواعي الطّاعة، وقد جعل الله لكلّ شيء سبباً، وجعل سبب المحبّة دوام الذّكر.

القاعدة التاسعة: المداومة على مراقبة الله تعالى في السرّ والعلن، فإن ذلك ضمان لنزاهة العبد في خلوته، يخاف من الله ويبتعد عن معصيته أينما يكون، وذلك لوصية الرسول صلى الله عليه وسلم ((اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن)) (Al- Tirmidi, 1998).

القاعدة العاشرة: اتّباع أوامر الله واجتناب نواهيه، وعدم الاستغناء عن العبادات والطاعات، وكذلك تصفية القلب من القاذورات، وذلك كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم (ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)). (Al-Bukhari, 2002).

فالغزالي يعدّ التصوف نهاية المطاف لكل العلوم، فهو مصدر المعرفة الحقيقية التي هي معرفة الله، وعليه فإن طريق التربية الصحيحة يمر عبره، ولذلك فهو المرحلة النهائية التي يسلكها المتعلم بالتحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل، للوصول إلى الحق.

الخاتمة

قدّم الإمام الغزالي التصوف بمفهوم جديد ممزوجا بين الشريعة والرياضة الروحية والأخلاق الفاضلة، فهو يرى أن هناك ارتباطاً كبيراً بين مفهوم التصوف والشريعة والأخلاق، لأن التربية الأخلاقية التي هي التنزه عن الأخلاق المذمومة والصفات الخبيثة لها أثر كبير على التربية الدينية التي تهدف إلى تخلية القلب عن غير الله

تعالى وتحليته بذكر الله، ودفعه إلى إقامة شريعة الله في الأرض، كما كان له دور كبير في تصفية التصوف مما لحق به من ممارسات مخالفة للشريعة وإرجاع التصوف إلى نبع الإسلام الصافي وما كان عليه الصحابة من زهد وتقشف في الحياة. ومن الجدير بالذكر، أن دعوة الإمام الغزالي إلى التصوف ليست دعوة إلى الكسل وعدم القيام بمتطلبات الحياة، وما تفرضه من التزامات كما يفهم البعض من التصوف، وإنما هي دعوة أخلاقية في صميمها جاءت لتحارب إقبال الناس على الدنيا دون مراعاة للحقوق والواجبات الدينية.

REFERENCES

Abu Yala, A.A. (1984). *Al-Musnad*. Damascus: Darul Mamun li al-Turath.

Al -Baihaqi, A.H. (2010). *Al-madkhal ila al sunan al kubra*. Kuwait: Darul Khulafa lil Kotub al-Islami.

Al- Fassi, A. Z. (2005). *Qawaeid al-tasawwuff*. Tahqiq: Abdul Majeed Khayali. Beirut, Lebanon: Darul kotub ilmiyah.

Al- Tahawi, A.M. (1994). *Sarh muskil al asar*. Beirut: Muassasah al-Risalah.

Al- Tirmidi, M. I. (1998). *Sunan al-Tirmidi*. Beirut: Darul Garb al-Islami.

Al -Zhahabi, A.M. (1993). *Siar alam al nubala'*, Thaqiq Shoaib Al-Arnaout. Beirut, Lebanon : Muasasa Al Risalah.

Al-Bukhari, M. I. (2002). *Sahih al-Bukhari*. Tahqiq Muhammad Zuhair bin Nasser. Cairo, Egypt: Dar Tuq al-Najat.

Al-Ghazali, A. M. (1885). *Al-Munqiz mina al-dalal*. Tahqiq Abdul Halim Mahmud. Cairo: Darul Kutub al-Hadith.

Al-Ghazali, A. M. (1991). *Ihya' ulum al-din*. Beirut: Darul Fikir.

Al-Hamwi, S. A. (1995). *Mu’jam al-Buldan*. Beirut: Darul Fikir.

Al-Husaini, H.M. (2013). *Mawsuatus sufiyah*. Cairo, Egypt: Kanuj lin Nasr wa Tawzi.

Al-Husni, A. A. (1970). *Meraj al-tashawuf 'iilaa haqayiq al tasawuf*. Cairo, Egypt: Dar al-Taalif bil Maliyah.

Al-Jaloudi, A. A. (2008). *Ada'at ala sirat Mohammad bin Mohammad al-Towsiy Al-Imam Al-Ghazali*. Jordanian Journal of History and Archeology, *2*(1), 69-94.

Al-Madani, M. I. (1899). *Al-Nusratul Nabwiyah*. Cairo: Maktabath Misr.

Al-Qushairi, A.K. H. (1966). *Al-Risala al-qashiria*. Tahqiq: Abdul Halim Mahmud. Cairo: Darul Kutub al-Hadithah.

Al-Subki, A.W. (1992). *Tabaqat al-Shafieih al-kubraa*. Tahqiq: Mahmud Muhamad Al tnahi. Giza: Darul Hajar.

Al-Taweel, Y.A. (2016). *Al-Nizea al-naqdiayah fi falsafa 'Abu Hamid al-Ghazali*. Beirut: Maktabat Hasan al-Asria.

Badawi, A. R. (1961). *Mualifat al-Ghazali*. Cairo, Egypt: Al-Majlis Aelaa li Ri'ayat al-Funun wa al-Adabi.

Bassar, E. & Ziad, A. (2019). *Al-Tatawar al delali li mafhum falsafa al-tarbiyah*. Jordan: Yazouri Group for Publication and Distribution.

Ibn Kathir, I. O. (1986). *Al-Bidayah wa al-nihayah*. Beirut: Darul Fikir.

Ibn Khaldun, A. K. (2004). *Al-Muqdima*. Damascus: Dar al-Balkhi.

Ibn Khalkan, A. S. (1968). *Wafayat al-'aeyan*. Tahqiq Ihsan Abbas. Beirut: Dar al-Thaqafah.

Kamal, I. J. (1970). *Al-Tasawuf tryqatan wa tajribatan wa mazhaban*. Cairo: Egypt: Dar al-Kutub al-Jami'i.

Muhammad, N., Ahlam, M. & Ibtisam R. (2014). *Al-Tarbiat al'akhlaqiat inda al-Imam Al-Ghazali wa ealaqatuha bi al-tasawuf wa tatbiqatiha al-mueasira*. Al-Mnara Journal. *20*(1), 445-564.

Muslim, A. H. (2006). *Sahih Muslim*. Riyadh: Dar tibah.

Saqr, H. I. (1970 *). Nur al-tahqiq fi sihat 'aemal al-tariq*. Egypt: Daru al-Talif.

Zaki, M. (2012), *Al-Akhlaq 'inda al-Ghazali*. Cairo: Klemat Arabiyah li Tarjumah wa Nashr.